صفات عباد الرحمن

٤ ــ الخوف من النّار

● الخطبة الأولى:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

لا زلنا نعيش مع عباد الرحمن، مع أخلاق هؤلاء الربانيين، الذين رضي الله عنهم ورضوا عنه، يقول الله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾ وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾﴾ [الفرقان: ٦٣ ـ ٦٦].

وصف الله هؤلاء العباد:

وصف حالهم في أنفسهم بأنّهم: ﴿يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾.

ووصف حالهم مع غيرهم بأنهم: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾.

ووصف حالهم معه سبحانه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾.

حيث يغفل الغافلون، وينام النائمون، ويغطّون في سبات عميق، هؤلاء: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا ﴿٦٤﴾﴾.

﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨].

ما الذي دفعهم إلى هذا؟

إنّه الخوف والطمع، إنّه الرغب والرهب، إنّه الخوف الرجاء، خوفهم من الله، تذكّرهم للآخرة، أنّها كانت دائماً تجاههم، وأنّ جهنّم كانت نصب أعينهم.

لم ينسوا قضيّتهم المصيريّة الأولى: أنّهم إلى الله صائرون، أنّهم مهما عاشوا في هذه الدنيا فإنّهم ميّتون، وأنّهم بعد الموت مبعوثون، وأنّهم بعد البعث محاسبون، فإمّا إلى جنّة، وإمّا إلى نار، ولهذا كانت جهنّم دائماً أمامهم.

ولهذا وصفهم الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان: ٦٥] والغرام هو: الملازم الدائم المقيم، كلّ شيء يزول عنك فليس بغرام، إنّما الغرام: ما لزمك وأقام معك[1].

﴿إنها ساءت مستقراً ومقاماً﴾: وأيّ مقام أسوأ، وأيّ مستقرّ أقبح من جهنّم.. الدار التي أعدّها الله للعصاة والمكذّبين من عباده؟.

يا أيّها الناس:

اتقوا هذه النّار، اتقوا جهنّم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۝٦﴾ [التحريم: ٦].

لو كان الموت نهاية المطاف لكان الأمر هيّناً، ولكن الموت (أشد ما قبله وأهون ما بعده).

هناك بعد الموت بعث، وهناك بعد البعث حشر، وهناك بعد الحشر موقف، وهناك بعد الموقف حساب وميزان وصحف تتطاير، ولا تدري أتأخذها

---

(١) قال في (مختار الصحاح): (الغرام): الشرُّ الدائم والعذاب وقوله تعالى: ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ قال أبو عبيدة: أي هلاكاً ولزاماً لهم.

باليمين أم بالشمال؟ ولا تدري إلى أين يميل لسان الميزان: إلى جانب الحسنات أو إلى جانب السيئات؟ أيثقل ميزانك فتكون ممنّ عيشته راضية؟ أم يخفّ ميزانك فتكون أمّك هاوية؟ ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ۝١٠ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ۝١١﴾ [القارعة: ١٠ ـ ١١]

هناك الموت وسكرته، هناك القبر وضمّته، هناك الموقف وزحمته، هناك الميزان ودقّته، هناك الحساب وسرعته، هناك الربّ وغضبته، وهناك الجنّة ونعيمها وهناك النار ولهيبها.

عباد الرحمن وضعوا نصب أعينهم (جهنم)، وكأنّها تريد أن تلفحهم، كأنّها تفتح فاها لتلتهمهم، ولذلك دعاؤهم: ﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ [الفرقان: ٦٥] ، لأنّ كلّ النّاس واردٌ عليها، مارٌّ بها، الصراط فوقها، منصوب عليها، يا ترى أتنجو أم تسقط؟ أتسلم أم تهلك؟ أتمرّ عليها مرًا سريعاً أم تختطفك الكلاليب حتى تهوي إلى جنهم؟.

﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝٧١ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝٧٢﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢] .

كان أحد الشباب الصالح ـ ابن أبي ميسرة ـ يبكي إذا أوى إلى فراشه ويقول: ليت أمّي لم تلدني، فقالت له أمّه: يا بنيّ إنّ الله أحسن إليك حين هداك إلى الإسلام، قال: ولكن يا أمّاه إنّ الله أخبرنا أنّنا واردون على النار، ولم يخبرنا أنّنا صادرون عنها.

كلّنا وارد على النار، تُرى من ينجو ومن لا ينجو؟

إنّ المشكلة أيّها الإخوة.. مشكلة النّاس كلّ النّاس: إنّ الآخرة بعيدة عن تفكيرهم.

النّاس لا يفكّرون إلاّ في حاضرهم.. في يومهم.. فِي مصالحهم القريبة.. في لذّاتهم العاجلة، أمّا الغد وما بعد الغد، فكلّ يبعده عن نفسه..

عن فكره.. عن ذهنه.. عن تصوّره.. عن خياله، مع أنّ الأمر قريب قريب، وكل آت قريب:

كلّ امرىء مصبّح في أهله ... والموت أدنى من شراك نعله!

﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧].

إنّ مشكلات الحياة تتعقّد حينما نرى النّاس كالذئاب، حينما نرى النّاس كالسباع في الغابة يأكل القوي الضعيف، حينما نرى النّاس كالأسماك في البحر يلتهم الكبير الصغير، ما العلّة؟

العلّة أنّ الآخرة بعيدة عنهم، أنّ الناس لا يفكرون إلاّ في دنياهم.. هذا هو الإله المعبود.

الدنيا وما فيها أصبحت الشغل الشاغل، أصبحت أكبر همّهم، ومبلغ علمهم، ومحور تفكيرهم، ومدار اهتمامهم.

ولكن عباد الرحمن صنف آخر:

إنّهم يذكرون الآخرة ويذكرون جهنّم: ﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝٦٥﴾ [الفرقان: ٦٥].

روى البخاري[1] عن أنس رضي الله عنه ـ قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١]، رسول الله ﷺ يسأل الله تعالى أن يقيه عذاب النار، وهو الذي غُفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر!

وكان يعلّم أصحابه ـ كما روى ابن عبّاس ـ هذا الدعاء كما يعلّمهم

---

(١) في كتاب (الدعوات) من صحيحه، باب: قول النبي ﷺ: «ربنا آتنا في الدنيا حسنة..». انظر: البخاري مع الفتح (١١/ ١٩٥ برقم ٦٣٨٩)، وانظره في: (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٩٥٦ برقم ٢٢٩٧).

السورة من القرآن: «قولوا: اللّهمّ إنّي أعوذ بك من عذاب جهنّم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدّجّال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»[1].

وهكذا كان يقولها دبر كلّ صلاة في آخر التشهّد وهذا ما يُسنّ لنا أن نفعله، حتى رأى ابن حزم وجوب هذا الدعاء في آخر كلّ صلاة.

لا بدّ أن يظلّ المسلم ذاكراً للنّار، وما أدراكم ما النّار؟ إنّ النبيّ ﷺ يقول: «نار بني آدم التي تُوقدون جزء من سبعين جزءاً من نار جهنّم، قالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية (نار الدنيا ليست هّينة فمن يصبر على حرّها؟)» قال: فإنّها فُضّلت عليها بتسعة وستين جزءاً»[2].

وكما روي عن داود عليه السلام: إلهي لا صبر لي على حرّ شمسك، فكيف أصبر على حرّ نارك؟!

وكما قال القائل:

جسمي على الشمس ليس يقوى ولا على أهون الحرارة!
فكيف يقوى على جحيم وقودها النّاس والحجارة؟!

إنّ الله وصف أولي الألباب ـ الذين يتفكرون في خلق السمٰوات والأرض، والذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ـ بأنّهم يقولون: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾﴾ [آل عمران: ١٩١ ـ ١٩٢].

---

(١) رواه مالك، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنّسائي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٩٩٥ برقم ٢٢٩٤).

(٢) متفق على صحته من حديث أبي هريرة رضي الله عنه (شرح السّنّة للبغوي بتحقيق الشاويش والأرناؤوط: ١٥/ ٢٣٩ برقم ٤٣٩٨).

«فقد أخزيته»: أهنته وأذللته، فالنار ليست عذاباً حسّياً فقط، ولكنّها عذاب معنويّ أيضاً: الخزي.. الذّل.. الهوان. حينما يُقال لهم: ﴿ٱخۡسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ﴾ [المؤمنون: ١٠٨] . .أي خزي وأي هوان أشدّ من هذا؟

النّار دار الخزي.. دار الهوان.. دار الحجاب عن الله، فقد وصف المكذّبين بقوله: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥﴾ [المطففين: ١٥] .

كان بعض الصالحين يتعلق بأستار الكعبة ويقول: يا ربّ، أما كان لك من عقوبة إلاّ النّار؟ كيف لنا الصبر عليها؟

روي أنّ النّبيّ عليه الصلاة والسلام كان يقول: «**لا تنسوا العظيمتين: الجنّة والنّار**»[1].

أيّ عظيم أعظم من هاتين العظيمتين؟ أين أين يكون مصيرك؟ دار النعيم أم دار العذاب؟

وقال عليه الصلاة والسلام: «**ما رأيت مثل النّار: نام هاربها، ولا مثل الجنّة: نام طالبها**»[2].

عش في الدنيا ما شئت، عش سبعين سنة، أو مائة سنة، أو مائتي سنة، أو ألف سنة، ثمّ ماذا؟ ستموت.

ثمّ ماذا بعد الموت؟

إمّا إلى جنّة، وإمّا إلى نار، كما قال النّبيّ ﷺ: «**والذي نفسي بيده ما بعد الموت من دار إلاّ الجنّة أو النّار**»[3].

---

(١) ذكره المنذري في (الترغيب والترهيب) عن ابن عمر مرفوعاً، وقال: رواه أبو يعلى، وسكت عليه، الحديث (٥٢٥٥) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة.

(٢) رواه الترمذي عن أبي هريرة، والطبراني في الأوسط عن أنس، وحسّنه في صحيح الجامع الصغير وزيادته برقم (٥٦٢٢).

(٣) لم أعثر له على مخرج، فيمكن أن يذكر على أنه أثر لا حديث.

وقال ﷺ يوماً لأصحابه: **«والذي نفسي بيده لو رأيتم ما رأيت، لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً، قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت الجنّة والنار»**[1].

فاختر أيّ الدارين؟

الموت باب، وكلّ النّاس داخله ... يا ليت شعري بعد الباب ما الدار؟

الدار جنّات عدن إن عملت بما ... يرضى الإله، وإن خالفت فالنّار

هما محلاّن ما للمرء غيرهما ... فاختر لنفسك أيّ الدار تختار؟

إنّ على النّاس أن يكونوا بين الخوف والرجاء، ولا ينبغي أن يغلبهم الرجاء حتى يأمنوا مكر الله، ولا ينبغي أن يغلبهم الخوف حتى ييأسوا من روح الله.

ولكن إذا كثرت الذنوب.. إذا تزاحمت المعاصي.. إذا امتلأت الصحف بالخطايا، فعلى الإنسان أن يغلّب الخوف على الرجاء، أن يتذكّر ذنوبه ولا ينساها، أن يحاسب نفسه قبل أن يحاسب، أن يزن أعماله قبل أن توزن عليه، أن يسأل نفسه قبل أن يصير السؤال إلى غيره.

عليه أن يتذكّر النار فيحاسب نفسه: ماذا قدّمت؟ وماذا عملت؟ وفيم قصّرت؟ وفيم فرّطت؟ عسى أن يصحّح، عسى أن يتدارك ما فات، عسى أن يتلافى ما فرّط، عسى أن يجعل يومه خيراً من أمسه وغده خيراً من يومه.

هذا هو شأن المؤمنين: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢].

حينما نزل على رسول الله ﷺ قوله تعالى ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾

---

(١) رواه مسلم، وأبو يعلى (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/٩٥٧، الحديث ٢٣٠٣).

[الشعراء: ٢١٤] . جمع أقاربه ودعاهم، فعمّ وخصّ، فقال: «يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر كعب أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا معشر بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة بنت محمدّ أنقذي نفسك من النار، فإنيّ لا أملك لكم من الله شيئاً، إلاّ أنّ لكم رحماً وسأبُلُّها ببلاها»[1].

كلّ إنسان عليه أن ينقذ نفسه من النار، وإنّما ينفذ نفسه من النار: بعمل الصالحات، واجتناب السَّيِّئات.

أنقذ نفسك من النار بأداء الفرائض واجتناب المحارم: «اتّق المحارم تكن أعبد النّاس»[2].

أنقذ نفسك من النار بأداء الحقوق: حقّ الله، وحقوق النّاس.

أنقذ نفسك من النار بالتوبة إلى الله إذا أذنبت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [التحريم: ٨] .

---

(١) ذكره الحافظ ابن كثير في تفسير سورة الشعراء (٣/ ٣٥٠) طبعة الحلبي، رواه أحمد عن أبي هريرة، ورواه مسلم والترمذي من حديث عبد الملك بن عمير به، وقال الترمذي: غريب من هذا الوجه، ورواه النسائي من حديث موسى بن طلحة مرسلاً ولم يذكر فيه أبا هريرة، والموصول هو الصحيح.

(٢) جزء من حديث رواه أحمد، والترمذي، والبيهقي في الشُّعب، عن أبي هريرة رضي الله عنه (الجامع الصغير: ١/ ٨)، وعزاه المناوي إلى أبي نعيم في الحلية، قال الترمذي غريب منقطع، وقال المنذري: وبقيّة إسناده فيه ضعف، وفيه جعفر بن سليمان الضبعي شيعي زاهد، ضعفه الذهبي والقطان ووثقه آخرون، وفيه أيضاً أبو طارق السعدي قال الذهبي: مجهول. انظر (فيض القدير: ١٢٤ ـ ١٢٥ برقم ١١٨).

كان عيسى ابن مريم ـ عليه السلام ـ يقول: كم من جسد صحيح، ولسان فصيح، ووجه صبيح، غداً بين أطباق النّار يصيح!!

وعندما تصيح غداً لا تنفعك الصيحة، وتنفعك الاستغاثة، إنّما ينفع ذلك اليوم.

غداً حساب ولا عمل، واليوم عمل ولا حساب، فاعمل اليوم للغد، لتنقذ نفسك من النّار.

كان من أدعية النبي ﷺ: «.. **وأسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول أو عمل**»[1].

وكان يعلّم أصحابه هذا الدعاء كما يعلّمهم السورة من القرآن: «**قولوا: اللهم إني أعوذ بك من عذاب جهنّم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجّال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات**»[2].

وكان يقول: «**من سأل الله الجنّة ثلاث مرات قالت الجنة: اللهم أدخله الجنة، ومن استجار من النار ثلاث مرات قالت النار: اللهم أجره من النار**»[3].

فاسألوا الله دائماً الجنّة، واستعيذوا بالله تعالى من النّار، فإنّ الله أعدّها للكافرين، ولكن يُلحق بهم عصاة المؤمنين.

إنّ الله سبحانه وتعالى حذّر وأنذر، ووعظ وذكّر، وأنزل في كتابه آيات

---

(١) قطعة من حديث رواه ابن ماجه عن عائشة رضي الله عنها، ورواه عنها أيضاً البخاري في الأدب المفرد، وأحمد والحاكم وصحّحه (فيض القدير: ٢/١٢٨ برقم ١٤٩٧).

(٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، رواه مالك، ورواه مسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٩٥٥ برقم ٢٢٩٤).

(٣) من حديث أنس رضي الله عنه، رواه الترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان في صحيحه، ولفظهم واحد، والحاكم وصحّحه، ووافقه الذهبي (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٩٥٥ برقم ٢٢٩٦).

بينات، وصف لنا فيها هذه الدار المخوفة ووصف لنا عذابها، وما أعدّ فيها، فقال:

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴿٢٩﴾﴾ [الكهف: ٢٩].

﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ﴿٤٧﴾﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٧].

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴿٤٤﴾﴾ [الطلاق: ٤١ ـ ٤٤].

﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴿٥٦﴾﴾ [الواقعة: ٥١ ـ ٥٦].

﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ﴿٣٢﴾﴾ [الحاقة: ٣٠ ـ ٣٢].

﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِى ٱلْأَصْفَادِ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴿٥٠﴾﴾ [إبراهيم: ٤٩ ـ ٥٠].

وصف الله لنا النّار حتى تكون واضحة المعالم أمام أعيننا، وحتى لا تكون لنا حجّة، ولا يكون لنا عذر ولا تعلّة[1].

حذّرنا الله النّار، وحذّرنا رسوله النّار، حتى نعمل على النّجاة منها، أمّا

---

(١) انظر كتاب: (التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار) لابن رجب الحنبلي (ت ٧٩٥هـ) فقد أطال الحديث فيه عن النار، وما أعدّ الله فيها لأعدائه من الخزي والنكار والبوار، وقسمه ثلاثين باباً.

أن نعيش في غفلة لاهين، وفي غمرة ساهين، لا ندري ماذا يُراد بنا ولا ماذا يُعد لنا، فهذا شأن الغافلين الذين جعلهم الله أحطّ من الأنعام وأضلّ سبيلاً.

استمعوا معي إلى قول الله تعالى في وصف قوم جعلهم حطب جهنّم ووقود النّار، يقول الله عزّ وجلّ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

كانوا أضلّ من الأنعام لأنّ الأنعام لم تُؤت من العقول والمواهب ما أُوتي هؤلاء، الأنعام لم يُنزل عليها كتاب، ولم يُبعث لها رسول، الأنعام لم تُستخلف في الأرض، ولم يكرّمها الله بالعقل كما كرّم الإنسان.

ثمّ إنّ الأنعام تؤدي رسالتها في الركوب والحلب والحرث والسقي، ولكن رسالة الإنسان أن يعبد الله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، فإذا لم يؤدّ هذه الرسالة رغم ما آتاه الله من الطاقات، والإمكانات والمواهب، فقد صار أضلّ من الأنعام سبيلاً، وصار أحطّ من الأنعام منزلة، ولهذا جعل الله هؤلاء حصب جهنّم، سرّ هذا كلّه: الغفلة ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

أعين قلوبهم قد عميت، أعمتها الشهوات وأعمتها الشبهات، فعاشوا لا يدرون أماماً من خلف، ولا يميناً من شمال.

هؤلاء الذين عميت بصائرهم، وصمّت عن الحق آذانهم، وضلّت عن الحقّ عقولهم، فكانوا أضلّ من الأنعام سبيلاً.

يا أيّها الإخوة المؤمنون:

كونوا كعباد الرحمن، ضعوا نصب أعينكم (الآخرة) تنحلّ المشاكل، تهن عليكم الدنيا، ويصبح كلّ أمر عسير يسيراً أمامكم، تُؤدّى الحقوق إلى أهلها.

كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول: (من خاف الله لم يشف

غيظه، ومن اتقى الله لن يفعل ما يريد، ولولا يوم القيامة لكان الأمر غير ما ترون)، أي لكان كلّ إنسان يفعل ما يشتهي وما يحلو له، ولكن هناك قيامة، وهناك حساب، كما قال النبي ﷺ للجارية: «لولا القصاص لضربتكِ بهذا السواك»[1].

ولكن هناك قصاص، وهناك عدل إلهي مطلق يقتصّ للشاة الجمّاء من القرناء.

إنّنا في هذه الدنيا لسنا مخلّدين، ولكنّنا فيها ضيوف راحلونه، كلّنا فيها مسافر ينتظر الطائرة التي تقلّه، أو القطار الذي يحمله إلى داره.. إلى دار المقامة.

نحن في مقيل، نحن في محطّة استراحة، وبعد ذلك يذهب كلٌّ إلى حال سبيله، ويذهب كلٌّ إلى داره الأصليّة.

تُرى ماذا تكون داره: أهي الجنّة أم هي النار؟

مرّ الحسن البصري على شابّ مستغرق في الضحك، فقال له: يا هذا علام استغراقك في الضحك؟ أعرفت هل تأخذ كتابك بيمينك أم بشمالك؟ قال: لا، قال: أمررت بالصراط ونجوت منه؟ قال: لا، قال: أعرفت أنّك هاوٍ إلى النّار أو ناج منها؟ قال: لا، قال: فعلام ضحكك؟ فبكى الشاب.

علام يضحك النّاس، ويستغرقون في الضحك وفي اللّهو، وفي الغفلة، والأمر خطير.

ليس معنى هذا أن يظلّ النّاس باكين، ولكن ليذكر النّاس الآخرة الحين بعد الحين، ساعة وساعة.

---

(١) الحديث ذكره المنذري في (الترغيب والترهيب) وقال: رواه أبو يعلى بأسانيد أحدها جيّد، وذكره الهيثمي في (المجمع) بعدّة روايات وقال: روى هذا كلّه أبو يعلى والطبراني بنحوه (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٩٣١، الحديث ٢٢٦١).

أذكروا الآخرة، لا تطرحوها وراء ظهوركم، لا تجعلوها نسياً منسيًا، لا تتخذوها وراءكم ظهريًا.

أذكروها حتى تستقيم حياتكم، وحتى تقوّم أعمالكم، وحتّى تسدّد خطاكم في الطريق إلى الله تبارك وتعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾[1] [البقرة: ٢٠١].

اللهمّ إنّا نسألك الجنّة، ونستعيذ بك من النّار.

اللهمّ إنّا نسألك الجنّة، وما قرّب إليها من قول وعمل، ونعوذ بك من النّار وما قرّب إليها من قول وعمل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم، ادعوا ربّكم يستجب لكم.

● الخطبة الثانية:

أمّا بعد فيا أيّها الإخوة المسلمون:

المفروض من المسلم أن يتوازن الرجاء والخوف في قلبه، أن يرجو رحمة الله وأن يخشى عذابه، كما ذكرنا في الخطبة الماضية قول الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩].

وكما قال تعالى في وصف المؤمنين: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾﴾ [السجدة: ١٦].

---

(١) هو من أدعية القرآن الجامعة التي يحسن بالمرء أن يدعو بها. قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة: ٢٠٠ ـ ٢٠٢].

وكما وصف بعض الأنبياء المصطفين الأخيار:

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

الرغبة: الرجاء فيما عند الله من رحمة.

والرهبة: الخوف مما عند الله من عذاب.

الله تعالى وصف نفسه بقوله: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥٠﴾﴾ [الحجر: ٤٩ ـ ٥٠].

﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر: ٣].

وقال: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾﴾ [فصلت: ٣].

ووصف لنا الآخرة فقال: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٠]، ففيها العذاب وفيها المغفرة والرضوان.

فلا بدّ أن يسير الخطّان متعادلين متوازنين: الحذر والرجاء، الرغب والرهب، الخوف والطمع.

لا يغلب الرجاء حتى يصل الرجاء إلى الأمن: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، ولا يغلب الخوف حتى يصل الخوف إلى اليأس فـ ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧].

وإنّما يرجو ويخاف.

ولهذا روى عن عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: لو نادى المنادى يوم القيامة: كلّ النّاس في الجنّة إلاّ واحداً، لخفت أن أكون ذلك الواحد، ولو نادى المنادي: كل النّاس في النّار إلاّ واحداً، لرجوت أن أكون ذلك الواحد.

فالرجاء والخوف متوازنان عنده، وهذا هو المطلوب من الإنسان المسلم.

ولكن من كثرت خطاياه وتفاقمت ذنوبه ينبغي أن يغلّب الخوف، ولكنّه خوف مشوب بالرجاء، حتى إذا جاءه الموت كان كذلك الرجل الذي دخل عليه النبيّ ﷺ - وهو يحتضر - فقال: «**كيف تجدك؟**». قال: أرجو الله يا رسول الله وإنّي أخاف ذنوبي، فقال رسول الله ﷺ: «**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن، إلاّ أعطاه الله ما يرجو وأمّنه مما يخاف**»[1].

إذا اجتمع الرجاء والخوف ساعة الاحتضار، فهذا علامة القبول عند الله عزّ وجلّ.

نسأل الله أن يجعلنا من الراجين الخائفين، وأن يجعلنا من عباد الرحمن.

اللهمّ إنّا نسألك رضاك والجنّة، ونعوذ بك من سخطك والنّار.

اللهمّ إنّا نسألك الجنّة وما قرّب إليها من قول أو عمل، ونعوذ بك من النّار وما قرّب إليها من قول أو عمل.

اللهمّ اغفر لنا ما مضى، وأصلح لنا ما بقي.

اللهمّ تُب علينا توبة نصوحاً.

اللهمّ أعنّا على شهوات أنفسنا، وأصلح فساد قلوبنا.

اللهمّ انصرنا على أعدائك أعداء الإسلام، اللّهمّ انصر المسلمين حيثما كانوا.

اللهمّ أيّدهم بروح من عندك، وأمدّهم بملأ من جندك، واحرسهم بعينك

---

(١) رواه الترمذي عن أنس رضي الله عنه، وقال: حديث غريب، وفي بعض النسخ: حسن غريب، ورواه ابن ماجه، وابن أبي الدنيا، وذكره الألباني في الصحيحة (المنتقى من كتاب الترغيب والترهيب: ٢/ ٨٧٥، الحديث ٢١١٢).

التي لا تنام، واكلأهم في كنفك الذي لا يضام.

﴿رَبَّنَا ٱصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَآءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝٦٦﴾ [الفرقان: ٦٥ ـ ٦٦] .

﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ٢٠١] .

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] .

﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠] .

وصلّ اللهمّ على عبدك ورسولك محمدّ، وعلى آله وصحبه، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٥٦﴾ [الأحزاب: ٥٦] .

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] .